

صورة الأردن والدور الاستثنائي

الكاتب



عبدالحسين شعبان

كانت صورة الأردن حاضرة بقوة وإشراق في مؤتمر نظّمته الجامعة الهاشمية بالزرقاء، وبالتعاون مع وزارة الثقافة، والتأم بمناسبة مئوية الدولة الأردنية، حيث استعاد المشاركون وهم من 23 بلداً وفي نحو 60 بحثاً ودراسة تلك المناسبة، بمراجعة نموذج التجربة الأردنية ارتباطاً بأجواء الأمل والتفاؤل، على الرغم من التحديات الاستثنائية التي عاشها الأردن، وكذلك وضعه الاستثنائي الجغرافي والتاريخي، بما فيه من عناد وظلم.

وكان الملك حسين تسلّم عرش المملكة لنحو 46 عاماً، وترك بصمته الواضحة على مسارها وتوجّهها على خلفية الثورة العربية الكبرى التي قادها الشريف الحسين بن علي للتحرّر والانعقاد من الهيمنة العثمانية؛ حيث كان الأمير عبد الله الأول قد أعلن عن تأسيس «إمارة الشرق العربي»، ثم سُمّيت «إمارة شرق الأردن» التي نالت استقلالها في 25 مايو/أيار 1946 وأصبح ملكاً على «المملكة الأردنية الهاشمية»، لكن اغتياله في العام 1951 في القدس وهو على درجات المسجد الأقصى، ترك أثراً عميقاً لدى الفتى الذي سيتولّى عرش المملكة بعد سنتين من إطلاق النار على جدّه، ومثل هذا الأثر لازمه حتى آخر يوم في حياته. واتّسم بتوجّهين أساسيين:

أولهما - نبذ العنف بجميع أشكاله ومبرراته وحججه وتداعياته، وثانيهما - رسوخ صورة القدس في وجدانه كجزء من استراتيجيته. وإلى اليوم فإن الأردن لا يزال وصياً على الأماكن المقدّسة في القدس.

وإذا كان الملك طلال صاغ دستور المملكة، فإن الملك حسين هو بانيها منذ أن تسلّم سلطاته الدستورية كاملة بعد أن أمّ الثامنة عشرة من عمره وفق التقويم الهجري في 2 مايو 1953. وحدّد خطاب العرش المبادئ الأساسية التي تسيّر عليها المملكة، والتي ستصبح بمثابة «بلا تفورم» لها مكّمة ومتمّمة دستورها وموثيقها. وهي: النظام رائدنا، والتعاون مطلبنا، والاتحاد في الصفوف رمزنا، والعمل شعارنا، وبناء وطن محكم الدعائم راسخ الأركان هدفنا، ومساواة جميع المواطنين مبدؤنا.

يمتلك الأردن موقعاً استثنائياً وسطياً، وهو ما جعله يواجه تحديات استثنائية أيضاً، فهو محاطٌ بخمس دول، فمن الغرب

القضية الفلسطينية، ومن الجنوب المملكة العربية السعودية، ومن الشرق العراق، ومن الشمال سوريا، ويشترك الأردن مع مصر بحدود مائة في خليج العقبة. وشهدت مصر وسوريا والعراق انقلابات عسكرية عديدة وأنظمة قومية راديكالية شمالية، في حين استمرت المملكة الأردنية الهاشمية تغرد خارج السرب وسط العواصف الإيديولوجية، مختارة طريق الاعتدال والتطور التدريجي وبتوجه أقرب إلى الليبرالية أو بعض إرهاصاتهما، حسب وصفه نهاية الأربعينيات والخمسينيات.

واجه الأردن تحديات وامتحانات عسيرة منذ استقلاله عام 1946، منها حرب العام 1948 العربية - الإسرائيلية، كما واجه مسألة بناء الدولة وتعريب الجيش والعلاقة مع بريطانيا وإلغاء المعاهدة معها، فضلاً عن التجاذبات السياسية في مراحل عديدة من تاريخه، وخصوصاً في نهاية الخمسينيات، ثم حرب 1967، إضافة إلى الموقف من الحرب العراقية - الإيرانية، وغزو القوات العراقية للكويت، ثم حرب الخليج الثانية لتحرير الكويت، والحصار الدولي على العراق واحتلاله فيما بعد، وصولاً إلى صفقة القرن في عهد الرئيس دونالد ترامب، وذلك في عهد الملك عبدالله الثاني. ومثل هذه التحديات الاستثنائية لم تتمكن دول أكبر وأغنى من الأردن وأكثر سكاناً أن تصمد أمامها، لكن الأردن بحكم بُعد نظر قيادته وحنكتهم السياسية تمكن من مواجهتها، وإن بصعوبات بالغة.

لقد تمكن الملك حسين، أن يرسم طريقاً سالماً للأردن، على الرغم من وعورة الأوضاع وقسوة الظروف ووجود أكثر من مليون لاجئ فلسطيني عاملهم الأردن معاملة الأخوة بالحقوق والواجبات، وبفضل ذلك تمكن من تجنب طريق المغامرة وردود الأفعال، وهو ما فتح أبواباً أمامه للتنمية والتقدم.

ومن ينظر إلى مسيرة الأردن ويعرف إمكاناته المحدودة والمخاطر التي تحيط به، يدرك حقيقة الدور الاستثنائي الذي لعبه الملك حسين باني المملكة، وما فتحه من أفق مستقبلي، بالرغم من تعقيدات الوضع العربي والإقليمي، وتجاذبات القضية الفلسطينية ومحاولات إسرائيل التوسعية.

كما تمتع الملك حسين بثقافة موسوعية ورؤية استشرافية عقلانية، وقدرة على عقد تحالفات وتدوير زوايا، إضافة إلى «إنسانية واسعة، فكان رؤوفاً وعطوفاً، وحسب نيتشه: «ما قيمة فضيلتي إن لم تجعل مني إنساناً عاطفياً».

drhussainshaban21@gmail.com